

كيف نكوّن رأيا عاما اجتماعيا

في مصر

للاستاذ سلامه موسى

تكوين الرأى العام سواء أكان سياسيا أم اجتماعيا أم اقتصاديا يجب أن يجرى على أسلوب واحد وبأسباب سيكلوجية واحدة ولغاية واحدة وهى خير الأمة ورقيها بإيجاد وجدان يقظ لتطورها وسعادتها .

والرأى العام بالطبع هو الرأى الناطق أى رأى المتعلمين الذين يستطيعون درس الحوادث ويستطيعون أيضا التكلم عنها . وهذان الشرطان ضروران لإيجاد رأى عام مهما كان نوعه :

١ — القدرة على الدرس بتوافر الوسائل للتعليم والاستنارة .

٢ — والقدرة على الإفصاح بتوافر الوسائل للتعبير عن الرأى .

واذا فقدنا أحد هذين الشرطين فقدنا الرأى العام . ففى الأمم الدكتاتورية مثلا وسائل لا تخصى للتعليم كالمدارس وغيرها ولكن أفراد هذه الأمم يحال بينهم وبين التعبير عن آرائهم ولذلك لا يمكن أن يكون لهم رأى عام . وكذلك نجد فى الأمم الجاهلة التى لم تنضج فيها وسائل التعلم حرية فى التعبير عن الرأى ولكن هذه الحرية لا قيمة لها ولا انتفاع بها للجهل المخم على العقول ولذلك ليس لها رأى عام ، وكثير من الأمم الاسيوية على هذه الحال لأن الأمة تنقشى فيها .

ولا عبرة بالقول بأن الأمة حرة فى التعبير عن آرائها اذا كانت جاهلة لأن الرأى لا يتكون إلا بالمعرفة بوسائل النشر من جرائد ومجلات ومحطات إذاعية وكتب ومجالس الخ .

ولهذا السبب يمكن أن نقول إن الرأى العام فى مصر ليس رأيا عاما وانما هو رأى خاص لأن الرأى الناطق المتعلم الذى وصل الى المعرفة لا يزيد أصحابه على نحو ١٠ أو ١٥ فى المائة من مجموع الأمة بل ربما كانوا أقل من هذا وهم أولئك الذين تعلموا فى مؤسسات التعليم الابتدائية والثانوية والجامعية كلها أو بعضها . أما خريجو التعليم الإلزامى فلا أستطيع أن أقول إنهم وصلوا من المعرفة الى حد يسمح لهم بتأليف رأى عام عن شؤوننا الاجتماعية أو الاقتصادية .

الرأى العام فى مصر هو رأى ١٠ أو ١٥ فى المئة من الأمة . رأى أقلية صغيرة متعلمة . رأى خاص . فإذا شئنا إيجاد رأى عام فلا مفر من أن نعلم الأمة كلها تعليما عصرىا بحيث يستطيع تحريكو هذا التعليم أن يدرسوا مشكلات مصر بالروح العصرى فى ضوء القيم والاعتبارات العالمية . وهذا أمل لا يزال بعيدا ، ولكن ليس معنى هذا أن ننقض أيدينا ونقول : ليس عندنا رأى عام فلا يجدينا بحث هذا الموضوع . لأن الواقع أن هذه الأقلية تقوم بتكوين الرأى العام لأن جمهور الأميين يسير خلفها ويرضى — من حيث يدرى أو لا يدرى — بحكمها .

والمفهوم من الموضوع الذى نتحدث عنه أننا نرغب فى رأى اجتماعى حسن ونتبحث الوسائل التى تؤدى الى تحقيقه . فما هو الرأى الاجتماعى الحسن .

الرأى الاجتماعى الحسن فى سنة ١٩٤٤ هو غير الرأى الاجتماعى الحسن فى سنة ١٨٤٤ وهو غير الرأى الاجتماعى الحسن فى سنة ٢٠٤٤ لأننا لا نستطيع أن نتخيل "الحسن" مطلقا غير مقيد بزمان أو مكان . وقصارى ما نقول فيه إنه شعور اجتماعى حسن أو إنه عواطف اجتماعية باردة أو إنه اتجاه الى الخير فى جمهور الأمة المستنير ثم فوق ذلك رغبة فى تحقيق هذا الخير .

ولسنا فى حاجة إلى أن نشرح ما هو خير الأمة لأننا اذا تقيدنا بالزمان والمكان عرفنا هذا الخير، أما اذا تطوحننا فى الغييات عن الخير المطلق فالتنا لن نعرفه أو لن نتفق على ماهيته ومع ذلك نستطيع أن نقول إن صحة الأجسام واستنارة العقول ووفرة المساكن والملابس الصحية كلها خير لا يختلف فيه ولكنا نختلف مثلا فى ماهية العائلة الحسنة أو التعليم الحسن بل أحيانا نختلف فى منفعة الحروب وضررها بل منا من يعتقد أن الفقر مفيد لبعض الناس وأن العلاج الناجع للجريمة ليس سوى السجن والمشقة .

و "الرأى العام الاجتماعى الحسن" يجب أن تكون له رؤيا وأن يستنير ببصيرة مثقفة فى كل هذه الشؤون . والرؤيا والبصيرة كلناهما تتكون بالمعرفة العصرية المقيدة بالزمان والمكان .

والمعارف هى المواد الخام التى يتألف منها الرأى العام . وقسم كبير من هذه المعارف بل أحيانا أصولها تناولها من المدارس والجامعات . فإذا اختلفت هذه المدارس والجامعات فى المعارف التى تعلمها لتلاميذها وطلبتها فان الرأى العام يجب أن يختلف . وإذا كان الاختلاف بين أكثرية وأقلية فان هذا الاختلاف ينفع لأنه يعود بمثابة السم القليل الذى ينبه ولا يقتل . ولكل أقلية لهذا السبب مهمة اجتماعية حسنة اذا لا ضرر على الجسم الاجتماعى من قبل مرء الزورنيخ ، بل هو يتفوق به . ولكن اذا كان الاختلاف بين

طائفتين متساويتين أو متقاربتين للمساواة فانه أى الاختلاف يضر لأنه يشق الأمة فيكون كذلك الاختلاف الذى ينشأ من فريقين متساويين فى البرلمان يمنع كل منهما الآخر من العمل ، وهذا هو ما نرى آثاره أحيانا فى شئوننا الاجتماعية بين فريق المتعلمين مثلا فى الجامعة الأزهرية وبين فريق المتعلمين فى جامعة فؤاد دون انتقاص لاحدى الجامعات . وحسبنا مسألة خلافية واحدة تدلنا على هذا الانشقاق وهى أيضا رمز لغيرها من الخلافات فمن وقت لآخر وخاصة أيام الصيف نسمع رأيين ، أحدهما ينضوى الى مجموعة من المعارف تؤلف ثقافة معينة وتتهبى الى إيجاد رأى اجتماعى خلاصته أن النساء ، سيدات وآنسأت ، يتبدلن على الشواطئ ويكشفن من أجسامهن جزءا كبيرا وأن هذا السلوك يخالف تقاليدنا ونحتاج لهذا السبب الى تقييد الاستحمام بقيود وشروط .

والرأى الآخر يقول إن الاستحمام على الشواطئ يحتاج الى التشجيع لأن تعرض المرأة للشمس يمكنها من ادخار فيتامين "د" وهو ضرورى للصحة الحسنة فيجب عليها أن تبقى على الشواطئ أطول ما يمكن من الوقت وأن تكشف من جسمها أكثر ما يمكن . فهنا نظران مختلفان يتساويان فى القوة ويمجدان خلافا يقلل ويرزعزع .

والكى نكون " رأيا عاما اجتماعيا " حسنا فى هذا الموضوع أو فى غيره يجب أن نعتبر الزمان والمكان وأن نتمدد على المعارف العلمية العصرية ولكن اذا كان جمهور كبير فى الأمة يعارض المعارف العلمية العصرية ويرفض اعتبار الزمان والمكان فان تكوين رأى عام اجتماعى يعود من المشكلات والمشقات الكبرى .

ولندكر مثلا آخر وهو التناقض بين رأى اجتماعى قديم ونظام اقتصادى حديث فنحن فى الوقت الحاضر نتألم من الأخبار المحزنة عن تفشى الملاريا القاتلة فى المديرىات العليا من الصعيد وكان أبرز ما فى هذه المأساة أن السكان فى هذه الأصقاع الموبوءة على غاية من اللقافة حتى قيل أن بعضهم يأخذ الكينين من أطباء الصحة فيبيعه لكى يشتري الخبز وحتى إن الحكومة باعتهم الدقيق بنصف ثمنه .

وظروف مصر الحاضرة تنادى بالحاجة الى العمال والأجور عالية فكيف يفتقر جمهور كبير من أبناء وطننا الى الطعام .

الجواب سهل وهو أن بعض أبناء الصعيد يلتزمون ثقافة قديمة وآراء بل عقائد اجتماعية لا تتفق وكسب العيش فى عصرنا . ففى الوجه البحرى تعمل المرأة الى جانب الرجل بلا غيب ولا عار وكلاهما يتكسب فلا فقر قاتل يؤدى الى الجوع ولكن فى المديرىات العليا من الصعيد يأنف الرجل من أن تعمل زوجته أو ابنته أو اخته وتكسب لأن هذا يعبه ويعيره ولذلك يجب عليه أن يقتسم أجرته معهن وهى لا تكفى فلا يكون سوى الجوع للجميع هو وهن ثم المرض ثم الموت وهذا هو الآن مأساة الصعيد .

آراء بل عقائد اجتماعية قديمة تحول دون الأخذ بالروح العصرى فلكى تكون رأيا اجتماعيا حسنا في مصر يجب أن نكافح هذه العقائد الاجتماعية .

ويجب أن نقول عقائد اجتماعية وليس آراء اجتماعية لأن سكان أسوان وقنا وسوهاج لا يرتأون الرأي عن العرض أو عمل المرأة أو الثأر بل يعتقدون العقيدة ولكنهم ليسوا مع ذلك شاذين لأن ما نسميه " رأيا عاما " في أية أمة مهما بلغت حضارتها إنما هو مجموعة من العقائد العامة أو رأى قائم على أسس من هذه العقائد العامة .

وأنا أوتر عبارة " العقل العام " على عبارة " الرأي العام " لأن العبارة الأولى تنطوى على العقائد والعادات الذهنية والحدود اللغوية التى يتكون منها جميعا " عقل عام " للامة نكاد نتكهن بالرأى الذى تنتهى اليه فى حادث معين اذا عرفناها أى اذا عرفنا هذه العقائد والعادات الذهنية والحدود اللغوية التى لا يمكن فردا أن يتحرر منها مهما ظن أنه حر وأنه لا يبالى المجتمع الذى يعيش فيه .

وتمجنى هنا كلمة " جون دوى " عن التفاعل بين الفرد والمجتمع . فهو يقول إن الفرد الى المجتمع كالطفل الى العائلة . فهو يعطى المجتمع من الآراء ويأخذ منه من الآراء أيضا بمقدار ما يعطى الطفل لعائلته من كلمات الطفولة الجديدة وما يأخذ منها من ماثات الكلمات التى يتحدث بها .

حين نتكلم عن إيجاد " رأى عام اجتماعى " يجب أن نذكر هذا . يجب أن نذكر أننا فى أسر عادات ذهنية وعقائد تبدأ من أتمه أعمالنا الى أجلها . من الأسلوب الذى تتبع فى تناول طعامنا الى طريقة التحدث الى من هم أكبر منا مقاما الى إرتياء الرأى عن حرية المرأة أو ديمقراطية الحكم . وهذه العادات الذهنية مع ما يرافقها من كلمات تحمل كل منها شحنة عاطفية تقرر لنا السلوك الاجتماعى فنفضب أو نسر ونخاطر أو نفر من حيث نعتقد أن عواطف الغضب والسرور والمخاطرة والفرار إنما هى جميعها من منبع نفوسنا وليست منعكسة من المجتمع علينا وليس شك فى أن الصميدى فى قنا وجرجا حين يقتل أخته أو أمه للعرض يعتقد أنه حر فى هذا الإجراء ولا يبر بخاطره أنه تربى على عادات ذهنية وتعلم ألفاظا معينة جعلته يرتكب جريمته . ولو أنه كان قد عاش فى مجتمع آخر فى إحدى مدن الوجه البحرى أو قراه لما وجد فى لفظة العرض هذه الشحنة العاطفية الملتزمة التى يرتكب بسببها نحو ثلثائة جريمة قتل فى مديريات الصعيد كل عام .

وكلمات اللغة الموروثة والعقائد والعادات الذهنية لا نحسها جميعا لأنها منا بمثابة العدسة التى ننظر خلالها الى الأشياء والناس فلا نراها هى . أى لا نرى العدسة التى تكبر لنا الأشياء والناس .

حين تفكر في تكوين رأى عام اجتماعى يجب أن نذكر كل هذا ويجب ألا نضحك حين نقرأ أن أحد الزوج من الكهنة في أفريقيا السوداء يقدم نفسه راضيا بالقتل لأنه أحسن أن يقاء حيا يؤخر المطر وأن موته سينعش الزرع بالغيث. كلانا قد آمن بعقائد مجتمعة وتلبس بها من حيث لا يدري .

ولكن مع كل هذه الصعوبات يجب أن نفكر وندبر الوسائل لايجاد رأى عام اجتماعى حسن ، رأى عام مستنير .

والرأى العام المستنير الحسن يجب أن يكون في عصرنا رأيا عالميا لأننا لا نعيش منفصلين من العالم . فإذا كان قد وسع مصر قبل ٨٠٠ أو ٧٠٠ سنة أن تكون لها عادات قومية وثقافة مصرية ، فلا يسعنا نحن الآن أن نستقل باجتماع خاص يخالف الاجتماع البشرى العالمى .

كان العالم قبل ٨٠٠ سنة منفصلة أمة قد شطحت المسافات بين كل قطر وآخر . وقد احتاجت جيوش ريتشارد قلب الأسد الى عام كامل لكي تمافى من إنجلترا الى فلسطين فكان الانفصال نقرره عوامل جغرافية . أما الآن فيمكن السفر بين هذين القطرين في نصف يوم بالطائرة فالاتصال بين قطر وآخر والوحدة الاجتماعية لها ما يبررها . والنظام الاقتصادى الذى يعم الدنيا سوف يعم عن قريب نظاما اجتماعيا عاما .

وقد اضطررنا في السياسة الى الأخذ بالاتجاه العالمى كما يثبت ذلك انضمامنا الى ميثاق الاطلنطى فاثبتنا بذلك أننا متمدنون عصريون قد نقلنا السياسة المصرية من النظر القروى الى النظر العالمى . واجتماعنا — مثل سياستنا — يجب أن يتجه هذا الاتجاه .

ولكن يجب ألا ننسى أن الرأى السياسى قد يتغير بسهولة لانجد مثلها في تغيير الرأى الاجتماعى عقيدة راسخة تحمل شحنة عاطفية تتصل بالسلوك الجنسى أو المقام الاجتماعى أو الاحساس الدينى .

ويزداد على ذلك أن ذوى الرأى السياسى — حتى حين يكاد هذا الرأى أن يكون عقيدة — هم أقلية صغيرة مثقفة قد اتسعت آفاقها الذهنية الى حد ما . فهى تقبل التغير . ولكن العقائد الاجتماعية تفشو بين الاكثريه الساحقة من الأمة . وهى اكثريه غير متعلمه لم تتدرب أذعانها على الجدل ولم تعرف قيمة الشك . فسكان الصعيد الذين أشرنا اليهم يعيشون بعقائد اجتماعية لها قوة اليقين ولكن ليس لهم آراء سياسية عن الحرب أو السلم والتغيرات المنتظرة منهما .

ومهمة الأقلية المثقفة في مصر أن تغير العقائد الاجتماعية عند هذه الاكثريه . ومع أن هذا محمود شاة فإنه واجب باليه رسالة محمدا كرام . وإذا كان إسماعيل باشا

قد استطاع أن ينير الأمة وينقلها من الشرق الى الغرب وإن كان قد أدى الثمن باهظا . فأننا نستطيع أن نسلك سبيله وخاصة أننا نعرف أن مسافة غير قصيرة قد قطعت . فقد استطاع اسماعيل أن يؤسس المدارس للبنات وأن يدخل قاتون نابليون وأن يوجد نظاما عصريا للحكومة بل أنه غير الزى الشرقى فأحاله الى زى غربى . ويجب ألا ننتقص هذا الإصلاح الأخير لأن الزى الذهبى كثيرا ما يتبع الزى الجسمى .

لقد وجد اسماعيل الأمة وهى على مستوى الظلام الذى كانت تعيش فيه أيام القرون الوسطى فأيقظها وأنعشها وبعثها أمة عصرية أو كالعصرية . ففهمتنا دون مهمته وواجبنا أخف من واجبه، ولكن يجب أن نذكر أنه أول من حاول تغيير العقائد الاجتماعية وقد غيرها . وأعظم محاولة قام بها مصرى بعد اسماعيل فى تغيير العقائد الاجتماعية هو بالطبع قاسم أمين .

ولكن ” العقائد الاجتماعية “ هى كما قلنا عقائد وليست آراء فهى تحتاج لى تغييرها الى كثير من التكرار والإيحاء والقعدة . ذلك لأننا لن نستطيع أن نغير عقائد الجمهور ونعمله على الإصلاح فى العائلة والزواج والطلاق والتعليم والعمال والنظام الديمقراطى للحكومة والاجتمع إلا بعد مجهودات متكررة فى الدعاية بالكتاب والصحيفة والراديو فون والسينما توغراف والمسرح . ولهذا الأخرين قوتها الإيحائية العظيمة وقدرتها على تغيير العقائد . ولكن يجب أن يكون إلى جنب هذا حكومة يقظة نيرة تنهز القرص لمل البرلمان على من القوانين التى تنقح وتغير فى العادات الاجتماعية أى تفعل ما فعله اسماعيل بدون برلمان بل دون دعاية سابقة من أى نوع .

فى أيام اسماعيل سبقت الحكومة رأى العام وأصلحت لإصلاح المستبد ولكن ليست هذه حالنا الآن ولسنا نحب أن تعود . على أن هناك أشياء فى وقتنا سبق فيها المجتمع الحكومة كما نرى مثلا فى إصلاح الوقف وفى غيره فإن الحكومة هى المتخلفة والمجتمع هو المتقدم وقد يفضح للإصلاح ولكنها لا تلبى ولا تعجل .

وكما استطاعت الأقلية المستنيرة أن تقنع المجتمع بضرورة إصلاح الوقف وأن تحمل الحكومة على أن تنهيا لهذا الإصلاح ، كذلك تستطيع هذه الأقلية التى تتولى توجيه رأى العام أن توحى العقائد الاجتماعية الجديدة أو ” تكون رأيا عاما اجتماعيا “ .

فلكى نكون رأيا اجتماعيا عاما فى مصر قبل كل شئ أن نجعل الأقلية المستنيرة تتجه نحو الغرب وأن نجعل من شرح الإصلاحات الاجتماعية هناك مادة خامة نصنع منها ونصوغ اصلاحاتنا .

فالرأى العام الاجتماعى الذى نحتاج اليه هو الرأى العام العصرى. الرأى العام العالمى الذى يعم عالم المتمدنين على هذا الكوكب . وقد انضممنا إلى ميثاق الاطلنطى فى الحقوق الأساسية وبودى لو يخترع ميثاق اطلنطى آخر فى الحقوق الاجتماعية ننضم اليه ونشارك به المتمدنين فى رفاهيتهم . ومع ذلك فاننا يجب ألا نهمل القيم الاجتماعية فى الميثاق القائم . وأكبر هذا الميثاق شأنًا فى القيمة الاجتماعية هو الحريات الأربع اذ أن احدى هذه الحريات هى التحرر من العوز وهى تنطوى على كثير من الحقوق الاجتماعية .

و كلاهما أى ميثاق الاطلنطى والحريات الأربع يرمزان الى المستقبل . فنحن نتجه وجهة عالمية وسوف نتكلم بلغة واحدة فى الاصلاح الاجتماعى . بل منا الآن طبقة صغيرة العدد ولكنها تنمو وتتكاثر تنظر هذا النظر للشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وأفراد هذه الطبقة يؤلفون فى مصر الرأى العام المستنير المتطور . ومعرفهم بالمجتمعات الراقية فى أوروبا وأميركا يجعل وجدانهم بمساوئ مجتمعنا عميقا موجعا . وهم لذلك صوت صارخ وتخط لا ينقطع على أحوالنا . ومن هنا الكراهة التى يكتسبون من بعض الفئات الرائدة الجاحلة المستقرة أولئك الذين لا يدرون أن الرجل المهذب فى عصرنا هو الرجل العالمى والمجتمع المهذب هو المجتمع العالمى .

ولكى نكون رأيا عاما اجتماعيا فى مصر يجب أن تجد هذه الطبقة المستنيرة فى الأمة الحرية فى العناية الاجتماعية كما يجب على أفرادها أن يحسوا مسئوليتهم الشاقة السامية وينشطوا إلى انجاز التراماتيا ويجب أن يكون لهم أثر فى الجريدة أو المجلة والكتاب والردىوفون والسينما توغراف والمسرح .

وللتلخيص أقول :

١ — إن الرأى العام هو على الدوام رأى خاص لأنه رأى فئة صغيرة قد حصلت على المعرفة المنيرة مع القدرة على التعبير . وهذه الفئة الصغيرة تقود جمهور الأمة . وحال التعليم فى مصر يجعل هذه الفئة صغيرة جدا .

٢ — الرأى العام الناضج يحتاج إلى شيئين هما المعرفة والحرية فيجب ألا توضع أى عقبة فى سبيلهما .

٣ — الرأى العام يختلف باختلاف المعرفة لأنها هى المادة الخام التى يتألف منها الرأى ، فالرأى الذى يرتأيه خريج الأزهر لا بد يختلف من الرأى الذى يرتأيه خريج جامعة قواد لأن المعرفة مختلفة .

٤ - إذا كان الاختلاف بين أقلية وأقلية فهو مفيد لأنه لا يشل الأكثرية عن العمل ولكنه ينبهها ويحفزها . أما إذا كان الاختلاف بين طبقتين متساويتين في العدد والمكانة فإنه يشل الأمة كلها عن الإصلاح . وخاصة إذا كانت المعرفة التي أوجدت هاتين الطبقتين تختلف في الأصول أحدهما شرقية تقليدية والأخرى عصرية علمية ، لأن التعصم هنا مرجح والتسوية شاقة .

٥ - كثير من متابعينا في مصر يعود الى أننا نقول شرق وغرب . وذلك الصعیدی الذي يستنكر استخدام بنة أو أخته أو زوجته ويكلف نفسه اطعامهم مع عجزه إنما يلتزم ثقافة لم تعد تليق بالعصر الحديث . ومهمة الطبقة التي حصلت على المعرفة والتي تنشد في مصر مجتمعا علميا هي مكافحة هذه الثقافة .

٦ - تكوين الرأي العام السياسي أسهل من تكوين الرأي العام الاجتماعي لأن الأمة تلتزم عادات اجتماعية كأنها شعائر دينية يصعب عليها تركها . ولذلك نحتاج لايجاد رأي عام حسن أن تفرس عقائد جديدة .

٧ - المجتمع العلمى الذى ننشده هو المجتمع العالمى الذى يسير مع الأمم المتقدمة فى الرقى الاجتماعى . وهو فى عصرنا مجتمع أوروبا وأميركا ولذلك يجب أن تكون هذه وجهتنا كما كانت وجهة اسماعيل باشا وقاسم أمين .

٨ - لقد انضممنا الى ميثاق الاطلنطى . وهو ميثاق أكثره سياسى وأقله اجتماعى . فيجب أن ننضم أيضا الى الحريات الأربع لأن بعضها يحمل كفالات اجتماعية كبيرة القيمة . واتجاهنا هذا هو اتجاه علمى وعالمى معا .

وكان يمكننى بدلا من هذا التلخيص أن أوجز فأقول إن الغاية الأولى والأخيرة من تكوين رأى عام اجتماعى أن يؤدى هذا الرأى فى النهاية الى ما نسميه "المجتمع العلمى" الذى تستغل فيه المواهب البشرية والطبيعية بشكل يمنع التبذير والفضياع تبذير الصحة والذهن وضياع الثروة .

ونحن نصف المعارف الدقيقة التى ينفنى منها الخطأ بأنها "علمية" فالمجتمع العلمى هو المجتمع الذى يقوم على المعارف الدقيقة . ولا يمكن أن نحصل على هذه المعارف الا مع الحرية التامة .

فلكى نكون رأيا عاما اجتماعيا نحتاج الى جمع المعارف ثم حرية الاستنتاج كما هو الشأن فى العلوم الجيولوجية أو البيولوجية أو الكيميائية .